الشعر والموضوع

بقلم : رشيف خوري

كان اديبنا الخالد عمر فاخوري اذا ذكر « نيرونية » خليل مطران سماها « معلقة العصر » تعظيماً لقدرها بين الروائع التي ابدعها شعراؤنا المعاصرون .

اما لماذا ابدأ — كمن يفاجيء — بالحديث عن النيرونية هذه ، او معلقة العصر ، فلا تتعب النفس يا قارئي بالسؤال ، لسببين — اولاً ، لاني لن استطيع ان اجيبك قبل نهاية هذا الكلام ، وثانياً ، لانك في نهاية هذا الكلام ستكون قد عرفت الجواب على كل حال .

انشد مطران هذه المطولة الشعرية اول مرة عام ١٩٢٥ . وقدم لها بكلمة قال فيها — على تواضعه — «انها اجرأ ما حاولته قريحة شاعر في الشرق » فهي « اكبر قصيدة متحدة الروي ومتحدة الموضوع ، عرفتها العربية » وقد شاء بهذه التجربة « ان يتبين الى اي حد تتمادى قدرة الناظم في قصيدة مطولة ذات غرض واحد يلتزم لها روياً واحداً » حتى اذا بلغت ذلك الحد بتجربتي ، يقول مطران — « بينت عندئذ لاخوتي من الناطقين بالضاد ضرورة نهج مناهج اخر لمجاراة الامم الغربية في ما انتهى اليه رقيها شعراً وبياناً . »

وهكذا يريدنا مطران ان نفهم ان محور همه في اخراج النيرونية ، قد كان اظهار المدى الذي يتسع له القالب القديم في الشعر العربي ، ليثبت الحاجة الى تجديد هذا القالب . ولقد سمع مطران انتقاداً حين اخرج قصيدتيه « الجنين الشهيد » و « تذكار الطفولة » . قيل عنه انه عدد القوافي في هاتين القصيدتين لتقصيره عن ان يجري شوطاً طويلاً مع القافية الواحدة . فلننتظر ، ومعقول جداً ، ان يكون مطران قد نظم النيرونية واطال فيها تلك الاطالة كلها ، مع التزام القافية الواحدة ليرد على من اتهموه بالتقصير . ولا ريب انه قد نجح بنفي التهمة عنه ، فليس الا شاعر كبير كمطران يستطيع ان يقطع المسافة التي قطعها في النيرونية دون ان تضيّع عليه القافية انفاسه . بل لا ريب انه قد نجح في اثبات الحاجة الى تجديد قالب الشعر العربي القديم ، من جهة القافية على الاقل . فان ترامي الموضوع مع الاحتراز من تكرير القوافي قد اركبه مركباً وعراً حقاً ، فاذا به يتكلف ان يستعمل لنا « اقمطر » في موضع « اشتد » و « غثراً » في موضع «العامة من الناس» و « طثراً » في موضع « رغيد » و « مسجهرا » في موضع «مضطرب » و « مصمقرا » في موضع « موقد» و « اثبجر » في موضع « ارتدع واتعظ». والقافية الواحدة حين تحوج الى مثل هذا العويص المهجور من اللفظ في القرن العشرين فاجدى ترك التقيد بها ومخالفتها . على ان الواقع ان كل ما نفيده من تجربة (النيرونية من جهة القالب ، ليس شيئاً اذا قيس الى جهة الموضوع فيها . بل ان مشكلة الحالة التي اثارها مطران في النيرونية وفي مطولاته الاخرى قرع لمشكلة الموضوع والشعر العربي . ولم يكن مطران ذاهلاً عن ذلك الامر ، ولذلك سمعناه يصف مطولته النيرونية بانها اكبر قصيدة متحدة الروي ومتحدة الموضوع عرفتها العربية . فجمع بين اتحاد الروي واتحاد الموضوع في القصيدة الواحدة ، يريد بذلك ضمناً أن من هذا الجمع بين الروي الواحد والموضوع الواحد تتألف المشكلة . وحين يتحرر الشاعر من وحدة الموضوع في قصيدته فيوشك ان لا تبقى مشكلة .

واذن فالنيرونية مطولة ذات موضوع ، وموضوعها على قول مطران نفسه « هو سيرة ذلك العاتي نيرون ووصف ما اتاه من المنكرات ، وفيها أقتم ما سُوّد به قرطاس من مساوىء حكم الفرد ، وأشد ما جرى به قلم على الشعب المسكين » اما لماذا اختار مطران سيرة نيرون موضوعاً ينظمه ، فامر يتوضح لنا اذا ذكرنا ان شاعرنا قد اتخذ من وصف اعمال الطغاة في التاريخ سبيلا الى مقصد يتصل بعصره اوثق اتصال . فطوال السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر ثم طوال ما امتدت به الحيوية الشعرية في القرن العشرين ، ما انفك مطران يشهد ظلماً مجسماً في هذا الحكم الفردي المطلق الذي بسطه سلاطين بني عثمان على شعوب الامبراطورية

الفنـــــون

•

عدد ممتاز من «الآداب»

يصدر في مطلع العام القادم

يضمّ دراســـات مستفيضة عن الرسم والنحت والموسيقى والتمثيل والسينما في البلاد العربيـــة والغرب .

العثمانية وظلماً مجسماً في هذا السطو الاستعماري الحديث الذي تناولت به الدول القوية الطامعة من استطاعت ان تستضعف من شعوب الارض . فكان مطران تلقاء ذلك شاعراً تجند للحرية على العبودية ، وللاستقلال على الاستعمار ، وللعدل على الظلم ، وغنّى يقظة الشعور القومي .

وصنع مطران ذلك مباشرة في احيان ، كما تشهد قصيدته « فتاة الجبل الاسود » ، وقد مجد فيها كفاح ابناء هذا الجبل الاشداء للاستعمار التركي ، وفي احيان اخرى سلك سبيل المداورة فعمد الى غابر التاريخ ، الشرقي منه والغربي ، فوقف عند نفر من طغاته او مظاهر الطغيان فيه وكان في كل وقفة يستشيط غضباً لما يقترفه الطغاة ويحرّض عليهـم الشعوب . وقصائده في هذا المجال اجود شعره تصويراً وتفكيراً وصدق عاطفة وحسن سرد وقص . وكانت نية مطران ان يجمع هذه القصائد في سفر خاص يعنونه « الطغاة » فجمعناها بعد وفاته في سفر نشرته « دار المكشوف » مشاركة في تخليد ذكـر الشاعر الكبير ونشر انواره . والحق ان مطران بلا اسراف ولا مغالاة ، يعد اكبر شاعر لبناني عربي شجب الطغاة ومسخ عمالقتهم اقزاماً ، ورذل حكم الفرد ، وغار على الشعب غيرة لم يسلك بها طريق شفقة على المظلومين ولا استعطاف للظالمين ، بل جعلها دعوة الى العصف بالجور والطغيان ، ومجد بطولات ابناء الشعب في مقارعة الغصب ، وزيّن الاخلاق النضالية في سبيل الاستقلال والحرية والنور والرقي .

فالنيرونية اذاً ، قصيدة ذات موضوع : سيرة الطاغية نيرون . وموضوعها قائم على فكرة عامة معينة محددة ، موضحة بقوة ، هي ان الطغيان شر ما تبلى به الشعوب . وتتصل بهذه الفكرة العامة فكرة خاصة اساسية ، او هي كالعلامة المميزة في موقف مطران من قضية الطغاة والشعوب . ففي رأيه ان الشعوب هي التي تخلق طغاتها . وهي التي تزيدهم تمرداً بمـــا تطيق من استبدادهم . تخاف الشعوب طغاتها ، او يوجد فيها من يتملقهم فيتضرّى اولئك الطغاة على الشعوب تضرّي الحيوان المفترس . ولكن الواقع ان الطغاة ضعفاء ، لا حول لهم ولا طـول في انفسهم ، وانما قوتهم في خوف الشعب منهم ، وفي تملق بعض فئات الشعب لهم . وما أسرع ما تظهر هذه الحقيقة حـــين تجتمع كلمة الشعب على الطغاة فيتساقطون بسهولة كما تنهـار الابنية الكرتونية اذا اصابتها الصدمة ، ويتناثر الورق الاصفر في الريح .

ومن يقرأ النيرونية يجدها ، من اول بيت فيها الى آخر بيت ، محكمة البناء على الموضوع الذي اختاره لها شاعرها ، وعلى ما يتصل بهذا الموضوع من فكرة دان بها الشاعـر في موقفه من قضية الطغاة والشعوب .

يستهل مطران مطولته بقوله :

ذلك الشعب الذي آتاه نصرا
هو بالسبة من نيرون أحرى

فكأنما وضع حجر الاساس للفكرة التي من اجلها أنشأ القصيدة ، وهي ان الشعوب مسؤولة عن من يقوم فيها من طغاة يتولون امورها ويستبدون بها . ثم يمضي في بسط هذه الفكرة وتأييدها :

قزمة هم نصبوه عالياً وجثوا بين يديه فاشمخرا
ضخموه واطالوا فيئه فتراه يملأ الآفاق فجرا
منحوه من قواهم ما به صار طاغوتاً عليهم او اضرا

انمـــا يبطش ذو الامر اذا
لم يخف بطش الالى ولوه امرا

ثم يمضي الشاعر في تفصيل سيرة نيرون ، فيذكر كيف استهل الطاغية عهده حذراً مدارياً الشعب ، ثم كيف تجاسر على الشعب لما آنس منه الخضوع والاذعـان ، وكيف دبر الهلاك لامه مع انها هي التي قتلت عمه ومهدت له الملك . ثم يصف سياسة نيرون من دس وتفرقـــة ، ورشوة للجيش ، واغداق للنعم على اهل الحظوة حتى « افسد القوم على انفسهم » ثم يلتفت الشاعر الى سلف لنيرون هو قليقولا الذي عـــين حصانه عضواً في مجلس الاعيان الروماني ، ويبدع ما شاء له الابداع في وصف حركات الحصان حين وجدت تلك البهيمة نفسها في ذلك المحيط الغريب ، كما يبدع في تصوير استخذاء الاعيان وتزلفهم الطاغية الذي بلغ من احتقارهم غاية الغاية :

دارت الجلسة في حضرتـه [1]
فادار الذيل في جنبيه خطرا
وله سامعتـــا من لم يثق ،
وله باصرتا من قـــل مكرا
ان اطالوا جدّ رفساً ، واذا
اقصروا حمحم تأنيباً وزجرا
واذا حرك رأساً اكبروا
وحيه ، لله ذاك الوحي درا
عظموا طِرْفاً ، وقبلا عبدت
امم من جهلهـــا ثوراً وهرا

ثم يربط الشاعر هذا الاستطراد الى قليقولا بسيرة نيرون موضوعه الاصلي ، فيقول :

ذاك ابداع قليقولا فهـــل
دونه نيرون في الابداع حجرا

ويتمهل قليلاً ليشرح لنا كيف يسير الطغيان والجهل يداً بيد . ثم يستأنف قصه للسيرة النيرونية السوداء فيـــذكر كيف تهوس الطاغية بالفن وحسب نفسه فناناً عبقريـــاً فائقاً ، فسافر الى اثينا ممثلاً ، ثم كيف استقبلته رومـــا عند عودته اليها بالحفاوة البالغة ، وكيف نوى ان يقيم زينة باحراق المدينة العظيمة . ويتفنن الشاعر في وصف الحريق ، ليلة شبّ في العاصمة الرومانية ، تفنناً لم يترك فيـــه زيادة لمستزيد . وليس وصفه عاماً مجملاً مطلقاً ، بل هو خـــاص ببيئة روما ، يفصل تفصيلا دقيقاً جميع ما كانت تحويه المدينة العظيمة او يتصل بها . فصور التماثيل في رومـــا « تنقض جمرا » ، والوحوش في اقفاص الامفتياترات (الملاعب الرومانية) كيف « كثر اللحم شواء حولهـــا وتأبت بعد جهد الصوم فطراً » ، ويصور نهر التيبر وامواجه الحسان كيف صار ماؤها غسلينياً حميمـــاً ، ثم يصور نيرون يتمتع بمنظر الحريق الهائل ويتخيل الاشكال ، التي يتشكل بها اللهب والدخـــان ، طوراً شعراً ، وطوراً كواسر طير ، يفترس بعضهـــا بعضاً ، وطوراً لوحات تفنن في اخراجها رسام ماهر ، وطوراً اصـــداء موسيقى . ثم يعاتب الطاغية عتاباً ساخراً على هـــذا الهـــدوء والمبالغة في صنيعه الفني . حتى اذا فرغ من هـــذا الاستغراق الرائع في الوصف والتصوير يعود الى

[1] ١ – المراد : حضرة الحصان

سلسلة رواية وادب وتاريخ

١ – ايلوئيز وابيلار ، ٢ – باغانيني ساحر الدساء ، ٣ – بودلير في حياته الغرامية ، ٤ – ميسالين الامبراطورة الوثنية ، ٥ – ليدي هاملتن سفيرة الحب ، ٦ – ديك الجن الحب المفترس ، ٧ – كاترين الروسية في احضان الحب ، ٨ – نابوليون وزوجته البولونية ، ٩ – اللورد بيرون عاشق نفسه ، ١٠ – بولين بورغيز الشهوة الجامحة ، ١١ – المرأة في حياة ادغار بو ، ١٢ – فاغنر والمرأة ، ١٣ – المركيزة دي بومبادور ، ١٤ – مضاجع نابوليون الثالث (الجزء الاول) ، ١٥ – مضاجع نابوليون الثالث (الجزء الثاني) .

من منشورات دار المكشوف ، بيروت

التذكير بفكرته الاساسية ان روما هي التي صنعت نيرونها :

ان روما جعلت نيرونها ،
وهو شر القوم ، مما كان شرا

ثم يستأنف العرض لما تعاقب في حياة الطاغية من فظائع ، فيروي كيف اتهم النصارى باحراق المدينة وكيف القى بهم الى الوحوش الجائعة في الامفيتياتر ، إلهاء للشعب ، لكنه لا ينسى ان يذكر كيف ذهب نيرون ولم يبق من ذكره الا السبة والشتيمة ، وكيف انتصرت المسيحية لان الاضطهاد اعجز من ان يقتل الفكرة العظيمة .

هكذا الفكرة من يرهقها
كمنت ثم علت وثبا فطفرا

ويختم مطران مطولته بوصف نهاية نيرون كيف استفحل به الجنون وثقلت عليه حياته ، واستأجر لنفسه من يقتله حين جبن عن الانتحار .

لاعبا ، حتى اذا ضاق به
ملعب الدنيا تخطاه ومرا
فقضى حين اقتضى منتحرا
بيدي مستأجر أوسع برا

وبالطبع لا ينسى الشاعر الفكرة الاساسية ؛ او العبرة التي قصد اليها بموضوعه ، فيجعل آخر ابياته :

كل قوم خالقو نيرونهم
قيصرٌ قيل له ، ام قيل كسرى !

وربما كان مطران قد جار على الشعب في مذهبه ان الشعوب تحمل تبعة الطغاة الذين يظهرون فيها وتعد هي المسؤولة عن افاعيل طغيانهم . إلا ان هذه حكاية اخرى كما يقولون . فالذي نحن بصدده الآن ان تجربة النيرونية لخليل مطران قد اثبتت ان الشعر العربي يتسع للخوض في موضوع متشعب ، محكم التأليف مع توفية الموضوع حقه ، ومع رصانة التفكير وقوة التصوير وسعة العلم بحقائق التاريخ .

وقد كانوا يعيبون على مطران ان قصائده اشبه بمقالات وليست شعراً . وهذا في الواقع مذهب من لا يرون الشعر الا ابياتاً مفردة ، محض غنائية ، قد اجيد فيها نظم كل بيت بمفرده . هذا في لواقع مذهب من لا يرون الشاعر مطالباً في شعره بالتركز على موضوع واحد يوفيه حقه . وربما كان هذا التقليد غالباً على الشعر العربي ولا سيما القديم منه الا ما قل وندر .

على اننا في عصرنا اصبحنا نفتقر الى تغيير هذا المفهوم . ولا بد لنا من مطولات شعرية ، وسواء اكانت ملاحم ، ام مسرحيات ، ام مجرد قصص ، ام مطولات تأملية فلسفية . ولا بد للشاعر من موضوع ، وهو مطالب بان يتركز عليه في شعره ، وسواء انقيد بالقالب القديم ، ام كسر هذا القالب ونوع في القافية ، او في القافية والوزن معاً . واذاً فالشاعر محتاج الى ان يجيد التأليف فلا يقتصر على الاجادة في نظم البيت المفرد . وواجبنا ان نشهد لمطران بانه قد كان في هذا كله رائداً عبقرياً بين شعرائنا المعاصرين !

رئيف خوري

واخيراً في الاسواق

القسم الاول من الرائعة العالمية

فارس الامل

رائعة الكاتب البرازيلي الكبير

جورج امادو

رواية كبرى تصور نضال الشعب البرازيلي وتاريخه الحديث ، من خلال حياة قائد الطليعة هناك... قائد جيوش الكادحين .. الذي اطلق عليه الشعب اسم « فارس الامل ».

مع مقدمة خاصة كتبها المؤلف لهذه الطبعة العربية

ترجمة : احمد غربية

تصدر الاقسام الثلاثة تباعاً

دار الفكر الجديد - بيروت ص.ب ٣٢٥٤

الثمن : ١٠٠ ق. ل. س هاتف ٢٢٩١٢